المدنيـــــة والانسان

[إن المدنية التي لا تصون نفسها من الدمار ، لا يمكن أن تصون الانسان]

الأستاذ حسين الظريفي

كثر الكلام في عناصر المدنية ومظاهرها ، وما لها من فعل وانفعال في كل أبناء الحياة ، وكان من البداهة أن يزيد تأمل الإنسان فيما دخل عليه في وسائل معاشه وطرق تفكيره ، وفيما وراء ذلك من مظاهر النفس والشعور ؛ فالمدنية الحديثة لم تدع شيئاً لم تأخذه بنصيب ، من بعيد أو من قريب ، فلم تقف عند حد الوسط الذي نشأت فيه ، وإنما فاضت عنه إلى خارج الحدود ، وإلى ما وراء البحار والجبال وكل حاجز أقامته الطبيعة في قرونها الطوال ، ولم تتناول مظهراً واحداً من مظاهر الحياة ، وإنما جمعت كل هذه المظاهر ووضعتها في موضع المحو والإثبات ، فأخرجت للناس مظاهر جديدة عليها طابع من التفكير الحديث وما يلي التفكير من إرادة ومن عمل ، ومن نتائج خطيرة تبطل دونها كل محاولة مقابلة

على أن صراعاً قام ولم يزل قائماً بين ما وصل إليه العلم الحديث من فهم للحقائق وقيام بالعمل ، وبين ما يجر هذا العصر وراءه من تراث عقول خلت منذ أن رأت الأرض أول هلال في الأفق . وما زال الصراع قائماً في حرب تستحر هنا وتخف هناك ، فتتغير الحقائق وتتبلور ثم تنصب في شكل جديد تؤثر على الناس فيما لديهم من وسائل الحياة ، وفيما عندهم من أساليب الفكر والبيان

لقد كانت تبشرنا المدنية الحديثة بإحلال الرخاء في كافة الأرجاء ، وكانت أبلغ كلمة تخرج من أفواهها تلك التي تصور الشعوب في وحدة كاملة شاملة غير متنافرة الأجزاء ، تقاهما دائم ، وسعيها وراء الصالح العام

تلك أمنية تملأ خيال كل مفكر ، وتسيل على لسان كل ذي بيان ؛ إلا أن مدنيتنا الحديثة كانت تحاول إلهامنا اليقين في قرب حلول الساعة التي يكون فيها الناس أمة واحدة ، فشحذت العزائم وانطلقت الجوارح تعمل في هذا الحقل ، والجميع يأملون ويعملون

كان في الإمكان أن يتعارف الناس على غير ما تعارفوا عليه طيلة القرون التي خلت . فتخرج الشعوب عما رزحت تحت أعبائه

يرى الحق فيما قال الغزالي مثلاً وإن كان الخطأ فيه بيناً ، والإلحاد والكفر فيما ذهب إليه الفلاسفة وإن كان الصواب فيه واضحاً ! ومن يعلم الأخلاق ولا يتخلق ، والفلسفة ولا يتفلسف ، والأصول والفقه ولا يجتهد ، وعلم الكلام ولا يستطيع أن يجادل عن الدين خصومه الحاضرين لا من عفت آثارهم الأيام !

وكان من هذا كله ، ومن تخلفنا في الطريق ، أن تجاهلتنا وزارة المعارف في أمور كان لا يصح فيها التجاهل ، وإن أغضينا العين على القذى . أذكر من هذه الأمور ما كان من الوزارة حين ألفت لجنة رسمية لتأريخ أعلام الإسلام ، في التشريع والفقه والأدب وسائر نواحي النشاط العلمي ، فلم يكن فيها أحد من الأزهر ! وما يجري هذه الأيام بين سمعنا وبصرنا من السفارات العلمية بين رجال الجامعة والعراق ، دون أن نخطر على البال فيستعان بنا في هذا السبيل ! وهكذا صرنا كما قال الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

أو كما قال الآخر :

يُغَلَّفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

٣ — وثالثة الأثافي توسيد الأمر أحياناً إلى غير أهله ، والثقة بمن لا يستحق ، ورعاية جانب الطلاب على حساب العلم . وتفصيل هذا في الكلمة التالية إن شاء الله تعالى

وإني لأرجو مخلصاً غاية الإخلاص لفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المراغي ، وموقناً بأنه خير من يفهم الأزهر ورسالته ويقدر على إصلاحه ، والسير به حتى يبلغ الهدف المنشود — أن تكون هذه الكلمة فاتحة لأخريات من إخواني الذين يحسون ما أحس من نقص يجب علاجه وتلافيه وتبعات جسام يجب القيام بها ... والله الهادي إلى الصراط المستقيم .

محمد يوسف موسى
مدرس بكلية أصول الدين

من ضيق فى ناحية الحقائق وسعة فى ناحية الخيال ، وتسخر الطبيعة بما فيها من قوى كامنة وساكنة لانتفاع الناس بها بعد أن كانت مصادر الهيلم فى وادى الظنون والأوهام

غير أن المدنية وقد نفثت من المادة إلى داخل النواة فأخرجتها بمظاهر مختلفة فيها منافع للناس ، قد وقفت دون المشاعر فلم تأخذها إلا بطرف يسير ، لا تفتأ فيه أن تنقلب إلى ما كانت عليه متى أثيرت فى النفوس تلك النزائر التى تحيا فى قاعها ، وتعمل على إحياء السيرة التى كان عليها الإنسان فى أول عهده بالحياة ، فكانت هناك بقية مما يتصل بالروح بعيدة عما هى لصيقة بالمادة ، وفى هذه الشقة يضيع التوازن ويحل الاضطراب

واليوم ، وبعد أن قامت الحرب على قدم وساق ولما تزل قائمة تتردد فى أسماعنا أصوات أولئك الذين أشعلوها وما زالوا يمدونها بالوقود ؛ وهى تحمل نغمات الوعد بإحلال السلام بعد إنهاء الحرب وإحراز النصر ؛ ولكن فاتهم أن السلام شىء غير مجرد الكلام وأن نزع السلاح لا يضع خيراً ولا يرفع شراً ، وأن أصل الداء فيما نحن عليه من عقائد وأفكار وأخلاق تحدث خروقاً كثيرة فى مدنيتنا الحديثة

لقد أردنا من المدنية أن تهيئنا شرور الطبيعة وأن نجد على راحتها الشفاء من كل داء ، ولكن فاتنا أن المدنية التى لا تقدر على حماية نفسها من الدمار لا يمكن أن تصون غيرها مما يخشى الوقوع فيه . وما دامت المدنية لم تكن فى وضع تقوى فيه على رد كل يد ، تخرج عليها مما حولها ومما عندها ، فإن الإنسان ولا ريب غير بالغ ما يريد الوصول إليه من إملاء الحياة بالحياة وطبع الأيام على حد السلام

إن المدنية يداً دخلت للواد كلها ، ولكنها صنعت فيما صنعت تلك القلاع الطائرة التى تحمل الموت الزؤام ، وتلك البروج المتحركة التى ترمى بشرر كالقصر ، ومن ورائها ضروب من الوسائل التى تنشر الموت والخراب ، ونحن بعد ذلك أولو مدنية وفى تطور إلى الأمام !

أما لا أنكر أن المدنية فضلاً سابغاً على بعض المرافق وفى بعض الجهات ، ولكنه فضل غير جامع وغير مانع لما يظهر من نقص وافتقار . لقد أعطتنا المدنية الحديثة متعة جديدة بما ابتكرته من وسائل الترفية وفنون المسرات ، ولكنها لم تنقص من أطراف ما يدخل الناس من هموم وأحزان ، وإنما زادتها أضعافاً مضاعفة ، وكانت الحياة سلوة أبنائها ، لا يشترون لذائذها إلا بأزهد الأثمان ، فعادت وقطوفها مرفوعة وممنوعة إلا عمن أعطى المال غير صاغر وكان من أهل الثراء

يمكن أن يقال : إن المدنية لم تبلغ بعد شأوها ، وإنها ما زالت دون المدى الذى تسعى إليه ، ولكنها ولا ريب قد بلغت فى مختلف مراحلها حداً لم يعد جديراً بها ألا تحسب لأرواح الملايين من الناس أى حساب ، وأن تقيم قوة الحديد والنار فى موضع التفاهم وتبادل الآراء ، دون أن يمنع التقاتل ما أعدته الطبيعة من حواجز أقامتها بفعل الأجيال ، ثم انطلقت قوى الخراب والدمار تفعل فعلها فى البر والبحر وعلى متون الهواء ، واستحر القتل فاخترقت خطوط الدفاع وتناول الدمار كل مرفق من المرافق . تلك ظاهرة ولا كالظواهر : تبعث فى نفسى فكرة الانتقاض على هذه المدنية التى لم تستخدم فى شىء بأكثر مما استخدمت فى إهلاك النسل والحرث . ولست أشك فى أن المدنية الحديثة ذات جروح دامية ، وأن داءها فى نفسها ، وأنها الآن يعز عليها الأساة

« بغداد »

حسين الشريفى
المحامى

تصوير معجم حسين وشركاه للصحة والرشاقة

ترسل تعليمات مجانية من شرخ طرق وتدريبات تملك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفى تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسى والحصول على دبلوم فى هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصرى بشبرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع المصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .